

نفحات القرآن

[342] وأدلة واضحة ومنطقية ورسائل يشهد محتواها على أحقيتهم، إلا أنهم لم يخضعوا للحق واستمروا في تكذيبهم. ويقول الله في ذيل الآية: (كَذَلِكَ نَطْوَيعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ)، وهذه إشارة إلى أن الاعتداء والعدوان على الرسل يترك حجاباً في القلب يحول دون معرفة القلب لآيات الله وتمييزه بين الحق والباطل. إن الطبع على القلوب كما يمكنه أن يكون عقاباً إلهياً للمعتدين، يمكن أن يكون أثراً من آثار الاستمرار في الاعتداء، والمراد من الاعتداء هنا هو الاعتداء على الساحة الإلهية والمعصية واقتراف الذنوب ومعاداة الرسل. إن جملة: (فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ) إشارة إلى أن بعض الرسل جاءوا إلى أقوامهم فكذبوهم، ثم أرسل الله إليهم رسلاً آخرين مع أدلة واضحة فما آمنوا كذلك، وذلك لأن عنادهم نسج حجاباً سميكاً على عقولهم فأصبحوا لا يفهمون شيئاً ولا يعقلون. ويقول البعض: إن المراد من المكذبين في الآية قوم نوح الذين أُغرقوا بالطفوان، والمراد من القوم الذين لم يؤمنوا الأقوام التي جاءت بعد قوم نوح وقد سلكوا مسلك قوم نوح في الاعتداء على الرسل وتكذيبهم(1). ويبدو هذا التفسير بعيداً لأن لازمه اختلاف مرجع الضمير في (كذبوا) و(ليؤمنوا)، ولهذا فالأفضل هو التفسير الأول. ويحتمل أن يكون المراد هو: الأقوام التي جاءت بعد نوح والتي قد نُقِلَتْ لها حقائق عن دعوة الأنبياء السالفين فكذبوا تلك الحقائق، ثم جاءتهم رسل فكذبوهم كذلك، وعلى هذا فالتكذيب الأول يتعلق بما نُقِلَ وَحُكِيَ لهم، والتكذيب الثاني يتعلق بالأمور التي شاهدوها من الأنبياء بأُْم أعينهم(2) ويبدو أن هذا التفسير مناسب، ولا يبعد الجمع بين التفسيرين. _____ 1 - مجمع البيان الجزء 5 الصفحة 125. 2 - روح المعاني الجزء 11 الصفحة 143.